الحوار ودرء مخاطر التفكك

ميشيل نصير(*)

الشُّكرُ والتَّقديرُ للأزهرِ الشريفِ، ومجلسِ حكماءِ المسلمينَ، الَّذي يطرحُ موضوعَ الحُرِّيَّةِ والمواطنةِ في إطارِ التنوُّعِ والتَّكاملِ، في زمنٍ ما زالَ تُستخدمُ فيهِ الأديانُ في إذكاءِ الصراعاتِ.

وموضوعُ محورِنا الرابعِ هو العملُ المشتركُ لدرءِ المخاطرِ؛ مخاطرِ التفكُّكِ والانقسامِ، في ظلِّ ما يجري اليومَ في بلادِنا، والكثيرُ ممَّا هو منشودٌ أنْ نتعاونَ في سبيلِ تحقيقِه، ويمكنُنا المساهمةُ في درءِ المخاطرِ عبرَ اعتمادِنا بعضَ الأساليبِ الَّتي سأعدِّدُها وأتكلَّمُ بإيجازٍ شديدٍ عنها.

ربَّما كانَ الحوارُ من أوَّلِ السُّبُلِ وأهمِّها؛ لدرءِ تلكَ المخاطرِ، فالحوارُ ليسَ به وسيلةٌ يأتي بها عندَ الأزَماتِ، بل هو الوسيلةُ المستعانُ بها لمنعِ وقوعِ الأزَماتِ؛ لأنَّ الحوارَ يُطمئِنُ المرءَ في مسيرتِه الحياتيَّةِ.

ومجلسُ الكنائسِ العالميُّ يقاربُ الحوارَ من زاوية أنَّه مسارٌ مشتركٌ يكونُ فيه التمكينُ متبادلًا نحو الالتزامِ بشئونِ الأرضِ، والسعيِ المشتركِ إلى إقرارِ العدلِ والسلمِ، والعملِ على بناءِ الخيرِ العامِّ للشعوبِ كلِّها، ولقد عرفتْ منطقتُنا العربيَّةُ نوعينِ من الحوارِ، الأوَّل ذو بُعدٍ رسميٍّ نجحَ حينًا، وأخفقَ حينًا آخرَ.

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني من الحوارِ فقامتْ به شخصياتٌ معتبرةٌ، وإن لم تكنْ ممثِّلةً لمذهبِها وطوائفِها، فقد غاصت في عمقِ المسائلِ والقضايا من أجلِ ترسيخِ العيشِ الواحدِ

والاحترامِ الواحدِ، وقَبولِ الآخرِ كما هو، ولكن هذا الحوارُ بَقِيَ نُخبَوِيًّا، وقد أثبتَ بعدَ سنينَ من قيامِه أنه لم يأتِ بنتائجَ عمليَّةٍ على أرضِ الواقعِ.

ولا ريبَ أنَّ الحوارَ الدينيَّ على أهميَّتِهِ إذا ما اقتصرَ على المسائلِ العقديَّةِ والنظريَّةِ، أي إذا اكتفى بنفسِه دونَ أن يتناولَ قضايا الإنسانِ المعاصرِ، وهمومَه - تكونُ جدواه محدودةً، وبخاصَّةٍ حينَ يستدعي الجدالاتِ العميقةَ الَّتي لا همَّ للإنسانِ المعاصرِ بها الغارقِ في همومِه وهمومِ مجتمعهِ ووطنِه، ذلكَ أن الأديانَ هي لخدمةِ الإنسانِ، ولرفعِ شأنِ كرامتِه، والحوارُ الدينيُّ الَّذي لا يهتمُّ بالإنسانِ وبخاصَّةٍ المحتاج هو حوارٌ عقيمٌ لا يُهِمُّ الناسَ، فالالتزامُ بالفقراءِ والنازحينَ وضحايا الحروبِ باتتْ له الأولويَّةُ المطلقةُ، فلا يجوزُ التمييزُ بين الفقراءِ وَفقًا لهُوِيَّاتِهم الدينيَّةِ والقوميَّةِ والمذهبيَّةِ؛ لأنَّ اللهَّ خلقَ الإنسانَ قبلَ أن توجدَ تلكَ الهُوِيَّاتُ الَّتي تُستخدَمُ في سبيلِ التفريقِ، فالإنسانُ إلى أيِّ مذهبٍ أو دِينٍ انتمى، فله الأولويَّةُ المطلقةُ.

ثانيًا: تأتي أهميَّةُ العملِ معًا، من أجلِ مساعدةِ الفقراءِ، وإيواءِ النازحينَ، وتخفيفِ آثارِ الحروبِ والأزَماتِ والنِّزاعاتِ، فهذا العملُ الإنسانيُّ المشتركُ إذا ما تأسَّسَ وصارَ فاعلًا، صارَ من شأنِه أن يُساهِمَ في إبعادِ شبحِ الانقساماتِ.

ثالثًا: العملُ معًا على مراجعةِ فلسفةِ برامجِنا التعليميَّةِ، ومناهجِنا التربويَّةِ، بحيثُ تتماشى والحداثةَ، فتحاكي عقولَ الشبابِ، وتُنمِّي عندَهم الرُّوحَ النقديَّةَ وسعيَهم

للحريَّةِ، وتزرعُ فيه التَّوقَ إلى التعرُّفِ على كلِّ ما هو مُختلِفٌ عنهم، لتقديرِه واحترامِه.

رابعًا: على الجميعِ أن يسعى لشراكةٍ مجتمعيَّةٍ راسخةٍ، شراكةٍ إسلاميَّةٍ مسيحيَّةٍ، من دونِ استبعادٍ أو إقصاءِ هيئاتِ المجتمعِ المدنيِّ، كي يَصِلوا معًا للسلامِ والأمنِ الاجتماعيِّ ودولةِ المواطنةِ وحقوقِ الإنسانِ الَّتي تحترمُ الكرامةَ الإنسانيَّةَ.

خامسًا: لابدَّ للمؤسساتِ الدينيَّةِ من العملِ على بلورةِ خطابٍ دينيٍّ، يَخدُمُ التقاربَ والتآلفَ بين المواطنينَ، لا أن يكونَ أداةً في أيدي المُغرِضينَ، ممَّا يقتضي السَّعيَ الجِدِّيَّ والحثيثَ؛ للوصولِ إلى مجتمعٍ يقومُ على إعادةِ الاعتبارِ إلى الإنسانِ، عبر التربيةِ على المواطنةِ والمساواةِ بينَ الحقوقِ والواجباتِ ما بينَ المواطنينَ جميعًا، وعبرَ بناءِ الدولةِ المدنيَّةِ، دولةِ القانونِ والمؤسَّساتِ.

وتشهدُ منطقتُنا العربيَّةُ اليومَ تسييسَ الدِّينِ واستغلالَه في الصراعِ السياسيِّ، ما يستتبعُ بالضرورةِ استخدامَ الدِّينِ في إذكاءِ الفتنةِ بينَ أتباعِ المذاهبِ المختلفةِ.

سادسًا: علينا العملُ معًا على اتخاذِ مواقفَ أخلاقيَّةٍ وإنسانيَّةٍ، ممَّا يجري من جرائمَ وانتهاكاتٍ لا أن ننساقَ إلى مواقفَ مؤيِّدةٍ أو غيرِ مباليةٍ تجاهَ من يقومُ بهذه الجرائمِ.

سابعًا: علينا أن نعملَ معًا على بلورةِ مبادئنا الدينيَّةِ والأخلاقيَّةِ المشتركةِ، وهذا يقتضي ألا يفقدَ المسيحيونَ مسيحيتَهم بحُجَّةِ الدفاعِ عن الوجودِ المسيحيِّ

بوسائلَ غيرِ مسيحيَّةٍ، فالحروبُ الأهليَّةُ لا تقتلُ الجسدَ فحسبُ، بل تقتلُ إنسانيتَه.

علينا أن نتخذَ دائمًا مواقفَ مشتركةً غيرَ منحازةٍ مع تعاملِنا مع ضحايا الإرهابِ، فالتضامنُ الجزئيُّ أن يتضامنَ المرءُ مع ضحايا جماعتِه من دونِ سواها -إنَّما هو الدليلُ على التعصُّبِ، أن يتضامنَ المرءُ مع كلِّ بريءٍ إنَّما هو دليلٌ على إنسانيتِه.

ولذلكَ على المسلمينَ والمسيحيينَ أن يلتزموا بالتضامنِ مع الواقعِينَ تحتَ الظلمِ من أيِّ جهةٍ، ولعلَّ ما يُساهمُ في درءِ خطرِ الانقسامِ والتفكُّكِ هنا -أن يتحدَّثَ القادةُ المسيحيونَ عن آلامِ المسلمينَ، والقادةُ المسلمونَ عن آلامِ المسيحيِّينَ في المحافلِ الدوليَّةِ، وكذا القادةُ المسلمونَ بالنسبةِ لآلامِ المسيحيِّين.